

الدرس العاشر

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله رب العالمين، اللهم صلِّ وسلم وبارك، على عبدك ورسولك محمد، وعلى آله وصحابه أجمعين، وعلى من تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين.

مقصد الاستقرار.

- الاستقرار يُراد به ما يقابل الاضطراب والاختلاف، فإن الاستقرار أمرٌ مطلوبٌ شرع على كافة الأصعدة، ووضعت له كثيرًا من الأحكام والوسائل، من أجل أن نتمكن من الوصول إلى هذا الاستقرار.
- والاستقرار على مراتب ومراحل متعددة، فمن ذلك: الاستقرار النفسي، فإن الشريعة قد جاءت بالكثير من الإجراءات والأحكام التي تؤدي إلى استقرار النفوس، ومن هذا: أن الشريعة مثلاً جاءت بالأمر باليقين في وعد الله -عزَّ وجلَّ-، أمرت بوجود الاعتقاد الصادق، الاعتقاد الجازم بما ورد في الكتاب والسنة، ومن هنا قال الله -جلَّ وعلا: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: 2]، "لا ريب" يعني لا شك، وما ذاك إلا لوجود اليقين، يورث الاستقرار في النفوس.

الوسائل الشرعية لتحقيق استقرار النفوس.

- أن أمرت الشريعة باتخاذ الإجراءات التي تؤدي إلى طمأنينة النفس، واستقرارها، ومن ذلك مثلاً: ما ورد في قوله تعالى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: 28].
- فذكر الله -عزَّ وجلَّ- سواءً بمعرفة أسمائه وصفاته، أو بالذكر اللساني، أو باستشعار قدرته -جلَّ وعلا- ورحمته، هذا يورث النفوس طمأنينةً يجعلها مستقرة.
- وهكذا الإيمان بالقضاء والقدر، فإن من آمن بقضاء الله وقدره، فإن نفسه ستستقر، لن يوجد عند المرء جزعٌ، ولا تسخطٌ، ولا اضطرابٌ في نفسه.
- وكذلك أيضاً ما ورد في النصوص من الأمر بالصبر على أقدار الله المؤلمة، والأمر بالرضى عن الله، وعن ما يقدره -جلَّ وعلا- على العباد، هذه كلها تورث الإنسان استقراراً وطمأنينةً، ولذا قال تعالى: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ * وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ * إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ [النحل: 126-128].
- هكذا عندما يستشعر المؤمن أن الله معه، فإنه حينئذٍ يستقر نفسه، مهما كاده الأعداء، ومهما مكر به الآخرون، ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا * وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ [الطارق: 15، 16]، ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: 30].
- عندما يجزم الإنسان بتصديق موعود الله -سبحانه وتعالى-، سواءً في ما يتعلق بالأرزاق، أو في ما يتعلق بالنصر على الأعداء، أو في مطالب النفوس الأخرى، فإن ذلك سيجعله مطمئن النفس، عندما نجعل بين أعيننا قول النبي -صلى الله عليه وسلم: «قال الله -عزَّ وجلَّ-: أنا عند ظن عبدي بي، فليظن بي ما شاء»، حينئذٍ ستستقر نفوسنا، عندما نسمع موعود الله -جلَّ

وعلا-، كما في قوله: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر: 51]، تستقر نفوسنا وترتاح.

وهكذا عندما يوجد عند الإنسان اتصالٌ بربه، ابتهاًل بين يديه، دعاءً له -جلّ وعلا-، مع يقين العبد بأن الله يجيب دعوات الداعين، هذا يورث الإنسان طمأنينةً واستقراراً في نفسه، كيف لا ونحن نسمع لقول الله -عزّ وجلّ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، فهذا الدعاء يورث النفس طمأنينةً وسكينةً، خصوصاً إذا كان عند الإنسان إيمانٌ بأن ما يقدره الله -عزّ وجلّ- سيكون لمصلحته، وإن كرهته النفس ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: 216]، وإن كنا نرغب في ما سواه، وبالتالي يجعلنا ذلك نطمئن إلى أقدار الله -عزّ وجلّ-، وما يقدره لنا رب العزة والجلال، ولو كان مكروهاً لنفوسنا، فتستقر هذه النفوس، ولا يحصل عندها اضطرابٌ واختلافٌ.

هكذا عندما يوجد عند الإنسان توحيدٌ بإفراد الله بالعبادة، يصرف عباداته لرب العزة والجلال، لا يخضع لأحدٍ سوى الله، فحينئذٍ يورثه ذلك طمأنينةً؛ لأن خضوعه وخنوعه لرب العزة والجلال وحده.

عندما نؤمن بأن الله هو المتصرف في الكون، وأنه لن يقع في الكون شيءٌ مغايرٌ لمراد رب العزة والجلال، وأنه سبحانه إذا أراد أمراً فإنما يقول له كن فيكون، حينئذٍ تسكن نفوسنا وتطمئن.

هكذا عندما يلاحظ الإنسان أن من الأوصاف الحميدة، التي أمر أهل الإيمان بها، أن يكونوا على سكينة، ويكون عندهم هدوءٌ في النفس، كما في قول الله -عزّ وجلّ: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: 63]، فهذه تورث النفس سكوناً واستقراراً.

وهكذا إذا امتثل الإنسان للتوجيهات الإلهية بالإعراض عن اللغو، وعن الكلام الباطل، حتى ولو كان سبباً للشخص واستنقاصاً لمكانته، فإن هذا يورث طمأنينةً في نفسه واستقراراً.

عندما يتصف الإنسان بصفة العفو، وكظم الغيظ، وعدم إنفاذ الغضب، هذا يجعله ممن تستقر نفسه، فإنه حينئذٍ لن يفكر في أخطاء الآخرين، ولن يعيد ويبدأ فيها، وإنما ينظر إلى مستقبله، وبقيّة أيامه.

هكذا من الأمور التي تجعل الإنسان على استقرارٍ وطمأنينةٍ: أن يكون معتزاً بدينه، معتزاً بانتماؤه التي جاء الشرع بأمر المؤمنين بأن يعتزوا بها ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 139]، فحينئذٍ يورثه هذا استقراراً في نفسه، وفي المقابل لا يوجد عنده كسلٌ، ولا يأس؛ لأنه يعلم أن أزمنة الأمور بيد رب العزة والجلال، يكون عنده حُسن ظنٍّ برب العزة والجلال.

الاستقرار النفسي يجعل الإنسان يتمكن من التخلق بالأخلاق الفاضلة؛ لأن نفسه مستقرة، يستطيع أن يفرّق بين الخُلُقِ الفاسد، والخُلُقِ الطيب، كذلك من كان عنده استقرارٌ نفسيٌّ، فإنه لن يُقدم على فعلٍ حتى ينظر، هل هو في مصلحته، أو في مسأته، وبالتالي لن يُقدم إلا على ما يعود عليه بالنفع، يتمكن الإنسان من التخطيط لأعماله المستقبلية، وترتيب الأمور، وما ذاك إلا أنه مستقرٌ نفسياً، غير مضطربٍ.

هكذا المستقر نفسياً يرتاح الآخرون في التعامل معه؛ لأنه على كلمةٍ واحدةٍ، لا اضطراب عنده، ولا اختلاف، فالمقصود أن العنصر الأول من العناصر التي جاءت الشريعة بها في باب الاستقرار، أن تستقر النفوس، وألا تكون مضطربةً، فهذا أمرٌ مهمٌ، لا بد أن نسعى إليه، وليس هذا خاصاً بالملكف، بل الشريعة قد جاءت بأمر المؤمنين بأن يزرعوا هذا الاستقرار في نفوس الآخرين، فأمرت المؤمنين بأن يدعوا غيرهم بهذه الأخلاق الفاضلة، والأسباب المؤدية إلى الاستقرار النفسي.

عندما يبتعد الإنسان عن عدوه الشيطان الذي يوسوس في قلبه، ويجعله مضطرباً متشككاً، يكون حينئذٍ ممن استقرت نفسه، عندما يوجد عند الإنسان التفاؤل، الذي يجعله يندفع إلى العمل، وأداء ما يريده من نتائج طيبة، فهذا موافقٌ أو سبب ذلك الاستقرار النفسي، عندما يكون في نفس الإنسان قوةً، فهذه القوة تجعله يتمكن من أداء أعماله، ولذا قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي، خيرٌ وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلّ خيرٍ، احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن فاتك شيءٌ، فلا تقل: لو كان لكان، وإنما قل: قدّر الله، وما شاء فعل».

- هكذا عندما توجد أخلاق في الناس فيما بينهم، لا يوجد هناك غيبة؛ لأن الغيبة تؤثر في نفسيات الناس، وتجعلها تضطرب، لا يوجد نسيمة، لا يوجد تنازع، وإنما يوجد إصلاح، هذا كله يورث استقراراً نفسياً.

الاستقرار الأسري.

- الاستقرار الأسري، الذي يكون في داخل الأسرة، سواء كان بين الزوجين، أو بين الأولاد وأبنائهم، أو إخوانهم.
- جاءت الشريعة بجعل البيت المسلم مستقراً هانئاً وديعاً، ولذا قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾ [الروم: 21]، إذا وجدت هذه المودة والرحمة، هذه ستورث هذه الأسرة الاستقرار والطمأنينة، وتبعد عنها الاضطراب.
- ومما جاءت به الشريعة في هذا الباب أن عرفت كل واحدٍ من الزوجين بحق الآخر، من أجل أن يقوم به، وألا يفرط فيه، فإذا وجد قيامٌ بهذه الحقوق، فحينئذٍ تستقر الأسرة، وتجتمع كلمتها.
- عُرِفَ الأب بحقوق أبنائه، عُرِفَ الأبناء بحقوق آبائهم، وأمرت الشريعة بحسن التربية، وأمرت الأبناء بالبر بالديهم، ونهتهم عن العقوق ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا * وَخَفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّي ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 23، 24].

الوسائل الشرعية لتحقيق الاستقرار الأسري.

- أن الشريعة قد أمرت المؤمنين بأن يحب بعضهم بعضاً، ومن أعظم ذلك: محبة أهل البيت الواحد لبعضهم، كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم: «لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا، ولن تؤمنوا حتى تحابوا».
- عندما توجد نفقة، ويُعرف من الذي يجب عليه أن ينفق، ومن هو الذي يُنفق عليه، ويعرف كل واحدٍ الواجب عليه في هذا الباب، يحصل استقرار، ويحصل طمأنينة، ويتبعد عنهم النزاع والاختلاف والاضطراب.
- كذلك هناك استقرارٌ مجتمعي، جاءت الشريعة بجعل المجتمع المسلم مستقراً مطمئناً مترابطاً، لا يوجد فيه اضطرابٌ واختلافٌ وتنازعٌ وتقابل، وإنما يكون بمثابة اللحمة الواحدة، ولذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضوٌ، تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

الوسائل الشرعية لتحقيق الاستقرار المجتمعي.

- مما جاءت به الشريعة الأمر بتفقد الناس بعضهم لبعض، الأمر بالإحسان، أن يحسن الناس بعضهم إلى بعض، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل: 90]، هذا الإحسان يجعل الناس يستشعرون معنى الاستقرار المجتمعي في المجتمع المسلم، يورث استقراراً وطمأنينة، وبالتالي لا يكون هناك تنازعٌ واضطرابٌ.
- التزام الآداب الإسلامية، سواء في ما يتعلق بالسلام، في ما يتعلق بمخالطة الناس بعضهم لبعض، في ما يتعلق باختيار الأقوال الطيبة، والألفاظ الحسنة، في إفشاء السلام، هذا كله يورث استقراراً مجتمعياً.
- أن يتناصح الناس في ما بينهم، فإذا تناصح الناس إذا وجدت على أخيك شيئاً، أمسكته بيده، في ما بينك وبينه، وأشرت إليه بإشارة لطيفة، لما هو عليه، بالتالي يوجد هناك استقرارٌ مجتمعي.
- كذلك عندما يوجد إنصافٌ من بعض الناس لبعضهم الآخر داخل المجتمع، يكون هناك استقرارٌ.
- الإيمان بالآخرة، عندما نؤمن بالحساب، وأن ما فات في الدنيا لا يفوت في الآخرة، هذا يجعل الناس يبتعد ما في قلوبهم من الغلواء واللاؤاء، وهكذا أيضاً الإيمان بالقضاء والقدر، وأن الله هو المتصرف في الكون، وأنه يرزق من يشاء، ويمنع من يشاء، يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له، هذه الأمور تجعل الناس لا يحقد بعضهم على بعض، هذا آتاه الله رزقاً، وبالتالي

- لا أحسده، وأحقد عليه، ولا أتمنى زوال ما عنده من النعم، ولا أسعى إلى مضرتة بأي نوعٍ من أنواع المضرة، بل أتمنى له الزيادة في الخير، وأن يستعمل ما عنده من المال في ما ينفعه دنيا وآخرة، فمثل هذا الأمر يوجد استقراراً مجتمعياً.
- عندما يوجد تفرجٌ للكربات بين الناس، هذا يجعلهم يترابطون، ويلتحمون، وبالتالي يوجد استقرارٌ مجتمعياً.
- إذا كان هناك صبرٌ من الناس بعضهم على بعضٍ ، وفي المقابل يُبنى أشد النهي عن الإيذاء، كما في قول الله -جلّ وعلا: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بَغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدْ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: 58]..
- هكذا حُسن الخلق، إذا وجد في المجتمع المسلم، يؤدي به إلى أن يكون لُحمةً واحدةً، أن يكونوا مستقرين، ما يشعرون باضطرابٍ وتنافرٍ في ما بينهم، بل يكونوا لُحمةً واحدةً.
- هناك إجراءاتٌ على سبيل التحرز؛ لأنها تُبعد الاستقرار المجتمعي ، مثلاً عندما يُمنع من البهتان، يُمنع من الكذب، يُمنع من الغيبة والنميمة، هذه سلوكيات تجعل الناس يضطربون ويختلفون ويتنازعون، ويبتعد عنهم الاستقرار المجتمعي، فهذه أوصافٌ نهى الشرع عنها؛ لتحقيق هذا المقصد العظيم، وإيجاد هذه الغاية.
- كذلك مثلاً عندما نهى الشارع عن وجود الانتقام، كذلك لما نُهي عن الغش، والغدر، والخيانة، وإخلاف المواعيد، هذه كلها إذا وجدت، هذه الأخلاق المنهي عنها، أدت إلى تفرق الناس، واختلافهم، واضطرابهم، وإذا تركها الناس، فحينئذٍ يستقر علاقاتهم، وسيجتمعون ويألفون، ويكون عندهم طمأنينةٌ في مجتمعاتهم.
- كذلك أيضاً نُهي عن الطيش في التصرفات، بحيث يعقل الإنسان في تصرفاته، ولا يُقدم على فعلٍ حتى يعرف عواقبه، وما هي آثاره في الدنيا والآخرة، وحينئذٍ يكون هذا من أسباب استقرار مجتمعاتنا.
- هكذا الأخلاق المردولة من مثل الكبر، والترفع على الناس، هذه أخلاقٌ مردولةٌ، فإذا وُجدت في الناس أبعدت عنهم التآلف، والاستقرار المجتمعي، ولذلك نُهي عن هذه الأوصاف، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبرٍ» ، وفي هذا الحديث لما قالوا: يا رسول الله، الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً، ونعله حسناً، فقال: «إن الله جميلٌ يحب الجمال»، فيه الإشارة إلى رغبة الشارع في التنظف والتطهر والتجمل، وهذه أمورٌ تؤدي إلى استقرارٍ مجتمعياً.
- إذا وجد استقرارٌ مجتمعياً، حينئذٍ يتمكن الناس من البيع والشراء، يثق الناس بعضهم في بعضهم الآخر، يكون هناك حسن تعاملٍ في ما بينهم، يورث هذا أثراً حميدةً كبيرةً في مجتمعاتنا.
- هناك من يحاول أن يززع هذا الاستقرار المجتمعي، سواءً بإيجاد النميمة التي تفرق الناس، أو بالغش والبهتان، وبالتالي يؤدي ذلك إلى أن لا يثق الناس بعضهم في بعضهم الآخر، وبالتالي علينا جميعاً أن نسعى في درء هذه الأعمال المؤدية إلى ارتفاع الاستقرار المجتمعي.
- عندما يوجد استقرارٌ مجتمعياً، يتفقد الناس بعضهم بعضاً، ويصبح كل واحدٍ منهم يحرص على أن ينصح إخوانه وبالتالي يدرأ ما قد يوجد عند ضعف النفوس، لما يوجد استقرارٌ مجتمعياً، يتداخل الناس فيما بينهم، يصبح بينهم زياراتٌ، يصبح بينهم تآلفٌ وودٌ، وبالتالي لا يكون هناك نجاحٌ للمحاولات التي يحاول بها بعض الأشخاص عزل بعض أفراد المجتمع؛ ليكون هؤلاء الأفراد خناجر في خاصمة مجتمعاتهم.
- وبالتالي هذا الاستقرار المجتمعي أمرٌ مهمٌ، وليس هذا الاستقرار مرتباً أو خاصاً بفئةٍ دون فئةٍ، بل هو للكبار والصغار، للرجال والنساء، للقریب والبعيد، بحسب اختلاف أنواع المجتمعات.

الاستقرار السياسي والاستقرار الدولي.

- الاستقرار السياسي، والاستقرار الدولي، فإن الشريعة قد جاءت بجعل المجتمع المسلم وجعل الدولة المسلمة مستقرةً، فإن الاستقرار يجعل الناس يؤدون أعمالهم، يجعل الناس يقومون بالمهام التي توكل بهم، يجعل الناس يتمكنون من أنواع الحرف

وزراعة، وغيرها من أنواع الحرف، بأن هناك استقراراً سياسياً ودولياً، وبالتالي يأمن الناس على أعمالهم، وأنها لن تذهب سُدًى، فيكون هناك ازدهار، وهناك تنمية، وهناك اجتماع وتآلف، وتستقر أحوال الناس.

الوسائل التي جاءت بها شريعتنا لتحقيق الاستقرار السياسي والدولي.

- فمن ذلك أن جاءت الشريعة بالأمر بإيجاد القضاء، فإن القضاء يوصل الحقوق لأصحابها، ويفصل في الخصومات التي تكون بين الناس، ويوقع العقوبات على المجرمين، ومن ثم تستقر حياة الناس.
- كذلك الحدود التي جاءت بها الشريعة، هذه تجعل الحياة مستقرة، وتجعل الدولة مستقرة؛ لأن هذه الحدود، وإن عوقب بها الواحد أو الاثنان، إلا أن لها أثراً على الأمة كلها، وعلى أهل البلد كلهم، وذلك أن هذه الحدود تجعل من يريد الجريمة يُحجم عن تنفيذ مراده منها، وبالتالي تنتفي هذه الجرائم، ويصبح الناس يؤدون أعمالهم وهم آمنون، ومن ثم تنفذ هذه الحدود وإيقاعها له أثر عظيم على إيجاد الاستقرار في الدولة.
- أن أمرت المؤمنين بالسمع والطاعة لأصحاب الولاية، كما قال الله -جلّ وعلا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء: 59]، وقال النبي -صلى الله عليه وسلم: «على المرء السمع والطاعة في ما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية»، بل تجاوز الأمر ذلك، فقال: «عليك السمع والطاعة لإمامك، وإن أخذ مالك، وضرب ظهرك».
- أن جرّمت الإرهاب، وأنواع الاعتداء، سواء كان اعتداءً خاصاً، أو اعتداءً على أمور عامة.
- التشديد في أمور الفساد العام، وحيث حرّمت على أحدٍ من الموظفين، أن يُفسد، وجعلت هذا مخالفاً لأمر الله -عزّ وجلّ-، ورتبت عليه العقوبات الأخروية ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: 77].
- التحذير من الدخول في الفتن، والمراد بالفتن: الأمور المدلّمة، التي لا يُدرى ما حقيقتها، بحيث يدخل الإنسان بمناصرة الشيء بسماعه لقولٍ من إحدى الطائفتين بدون أن يميز حقائق الأمور، فعندما توجد محاولات لجعل الناس ينفرون من السمع والطاعة، بتحريض الناس على الاجتهادات التي تتخذ من قبل هذه الطوائف، فهذا مخالف لما جاءت به الشريعة، ولهذا قال الله -عزّ وجلّ: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ وَرَحْمَتُهُ لَاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: 83].
- مما جاءت به الشريعة: أن أمرت المؤمنين بالالتزام بالصلح، ورغبت في الدخول في الصلح، فصلح يعقده صاحب الولاية يجب على من تحت يده أن يقوموا بالالتزام بذلك الصلح، قال تعالى: ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ﴾ [الأنفال: 61، 62].
- وهكذا مما جاءت به الشريعة: الأمر بالسمع والطاعة في ما يتعلق بباب الجهاد، فلا جهاد مشروعاً إلا بولاية معتبرة، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «الإمام جُنَّةٌ يُتَّقَى بِهِ، وَيُقَاتَلُ مِنْ خَلْفِهِ»، لأنه إذا لم يكن للناس ولاية في باب القتال والجهاد، فحينئذٍ لا يعرفون خفايا عدوهم، ولا يعرفون أن يخططوا وأن يلتزموا بخطط تنفعهم وتكفيهم شر أعدائهم.
- وكذلك مما جاءت به الشريعة في هذا الباب: أن حرّمت الخروج على صاحب الولاية، وجعلته كبيرة من كبائر الذنوب، كما قال النبي -صلى الله عليه وسلم: «من مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية».
- وتلاحظون في هذا الباب أن الأخلاق، وجعل الناس يتنافرون، هذا يتنافى مع هذا المقصد، ومن هذا المنطلق جاءت الشريعة بتحريم أن يهجر المسلم أخاه «لا يحل لامرئٍ مسلمٍ أن يهجر أخاه فوق ثلاثٍ، يلتقيان فيعرض هذا، ويُعرض هذا، وخيرهم الذي يبدأ بالسلام».

أمثلة جاءت بها الشريعة لتكون وسائل على الاستقرار.

- مثال في الحياة الأسرية، جعلت القوامة على الرجل، وفي السفر، جعلت الإمرة لأحدهم، كذلك في الناس عموماً، جعل أمرهم إلى الخليفة، كذلك الناس في الصلاة جعل أمرهم إلى الإمام، حتى لا يحصل الاختلاف، فيبقى الناس على استقرار.

- نعم، إيكال الأمر إلى شخص واحد، يُظن أنه أولى من ينظر في هذا الأمر، يحقق الاستقرار في حياة الناس، وإلا اضطربوا، لو كان مثلاً في صلاة الجماعة، كل منهم له رغبة، وأحد يريد تقديم الإمام، وواحد يريد تأخيرها، فإذا أوكلنا الأمر إلى صاحب الاختصاص، وهو الإمام، فحينئذٍ يؤدي ذلك إلى وجود استقرار في صلاة الجماعة.
- هكذا في الأسرة، عندما تكون القوامة للزوج، ويكون المعتبر اجتهاده هو سينظر إلى رغبات من عنده، لكن في ما يحقق أو في ما يعود على أمور الأسرة، الأمر إليه، وبالتالي يؤدي ذلك إلى جعل الأسرة تستقر.
- وهكذا على مستوى الدولة، عندما يوكل الأمر إلى صاحب الولاية، يؤدي ذلك إلى استقرار الناس؛ لأن كل واحد من الناس له اجتهاد، فعندما يوجد إمام يكون هذا الاجتهاد هو الاجتهاد المعتبر.

الأمثلة على الاستقرار التي جاءت بها الشريعة.

- (١) أن جعل هناك قصاص، حيث قال الله - سبحانه وتعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ﴾ [البقرة: 179]، فهذا أيضاً يأتي هناك استقرار النفوس.
هذا القصاص ينفي وجود التنازع بين القبائل، وبين الأسر، ويزيل ما في النفوس من رغبة في التشفي والانتقام، وبالتالي تصلح أحوال الناس وتستقر.
- (٢) أن الشارع أمر بإكرام الجار، عدم إيذاء الجار، فقال النبي - صلى الله عليه وسلم: «ما زال جبريل يوصيني بالجار، حتى ظننت أنه سيورثه».
يعني هذه الأخلاق الإسلامية التي جاءت في حسن التعامل مع الآخرين، ومنهم الجار، تؤدي إلى استقرار مجتمعي، وبالتالي يتحقق المقصود الشرعي في هذا الباب.
- يعني مثلاً في باب الدعوة إلى الله - عز وجل -، هذه الدعوة لن يكون لها مجال إلا إذا وجد الاستقرار، استقرار نفسي، بحيث يتمكن الناس من التفكير في كلام هذا الداعية، واستقرار نفسي من الداعية نفسه، حينئذٍ سيتمكن من التخطيط والترتيب وانتقاء الألفاظ، وإيجاد الحجج والبيانات التي تحقق أو توصل إلى ما يدعو له.
- هكذا في ما يتعلق بالسلم أو الاستقرار المجتمعي، إذا كان الناس يتنازعون فهم سيكونون مشتغلين بما يحصل بينهم من نزاعات واضطرابات، وبالتالي سيصرفهم عن دعوة هذا الداعي الذي يدعوهم إلى الله - جلّ وعلاً -، وهكذا في باب الاستقرار الدولي، فإن الناس إذا كانت بينهم حروب ونزاعات، فحينئذٍ سيشتغل الناس بهذا الباب، وسيتعصب كل منهم لأصحابه وجماعته أو دولته، وبالتالي يؤدي بهم إلى ألا يقبلوا من الداعي إلى الله - عز وجل - ما يدعو إليه، ولذلك نشاهد من يطبق المنهج الإسلامي، ويسعى إلى مراعاة مقاصد الشريعة، أنهم يسعون إلى إيجاد الاستقرار في الدول، والاستقرار على جميع الأصعدة، بخلاف من يخالف المقصود الشرعي، حتى ولو تسمى بالإسلام، عندما يدعو إلى خلاف هذا المقصد الشرعي، فهو في الحقيقة لم يدع إلى ما جاءت به الشريعة، ولم يلتفت إلى المعاني العظيمة التي جاءت بها شريعتنا المباركة.

وصلى الله على نبينا محمد، وعلى آله وأصحابه وأتباعه، وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

